السيمياء المفهوم والآفاق

د. شلواى عمار(*)

ملخص:

تتعرض هذه الدراسة لتتبع مصطلح "السيمياء" وتطوره كعلم أو منهج، من أحدث المناهج الفكرية المعاصرة، يهتم بدراسة "العلامات" وبالتالى دراسة الكون بما فيه الإنسان- على اعتبار أن الإنسان علامة أيضاً، كما يقول بيرس- ويهدف إلى التواصل من جهة والخلق والابتكار من جهة ثانية، إذ لا شىء سوى العلامات، بها يحدث التواصل وبها يحدث الخلق والابتكار.

Résumé :

Cette étude suit l'apparition du terme "sémiologie" et son évolution comme science ou méthode des plus élaborées et des plus profondes de pensée moderne. Cette méthode étudie les signes ; par conséquent, l'univers compris l'homme. (car ce dernier est considère comme signe selon la conception de Ch.S. Peirce). Elle a pour objet la communication d'une part et la création et l'invention d'autre part. car les signes sont les seuls systèmes de communication et de création.

(*) جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

من غير شك، قد يثير مصطلح "السيمياء" تساؤلات عديدة واستفسارات متنوعة، يطرحها غير المتخصص وغير المطلع على هذا الميدان الرحب، قصد المعرفة والاطلاع كما قد يطرحها المختص قصد تعميق البحث السيميولوجي، وهي أسئلة مشروعة، ومنها على سبيل المثال: ما السيمياء؟ وما مفهومها كعلم أو كمنهج؟ وما هو موضوعها؟ وما طموحاتها وأهدافها؟

وهذا ما سنحاول تبسيطه والإجابة عنه، من خلال هذا المقال المتواضع الذي يعرف بهذا العلم، ويكون بمثابة المفتاح لمغاليق هذا الميدان وأفضل بداية، تدخلنا في هذا المجال قوله تعالى:" تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا" -البقرة ٧٦ ، و"وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم " -الأعراف ٤٦ ، و"ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم" -الأعراف ٤٨، و "ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم" -محمد ٣٠ ، و"سيماهم فى وجوههم من أثر السجود" -الفتح ٢٩، و"يعرف المجرمون بسيماهم" -الرحمن ٤١.

ويتضح مما سبق أن لفظ السيمياء ورد فى القرآن الكريم ست مرات بمعنى العلامة سواء أكانت متصلة بملامح الوجه أم الهيئة أم الأفعال أم الأخلاق، وفى لسان العرب السومة والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة بصفة عامة من غير تحديد أو تقسيم[1].

وعلى الرغم من تعرض علماء العرب فى أبحاثهم للعلامة اللغوية كأداة للتواصل ونقل المعارف وتطرقهم لتعدد أدوات التواصل وتنوعها تبعا لحاجة البشر واجتماعهم[2] فإننا لا ندعى أن هذا العلم بصيغته الحالية كان معروفا إنما أردنا بذلك الإشارة إلى أن العرب عرفوا العلامة ووظيفتها من جهة، ومن جهة أخرى أردنا أن

نربط الحاضر بالماضى، لأن العودة إلى التراث ضرورة وجودية وضرورة معرفية في الوقت نفسه[٣] وبذلك فقط نشارك فى بناء الحضارة الإنسانية.

يمكننا إذن أن نقول إن علم السيميولوجيا أو السيمياء هو من بين العلوم الحديثة وثمرة من ثمار القرن العشرين يدرس العلامات فى كنف الحياة الاجتماعية وهو يزعم لنفسه القدرة على دراسة الإنسان دراسة متكاملة من خلال دراسة العلامة المبتدعة من قبل " الإنسان" لإدراك واقعه فى آن واحد[٤]؛ فهو علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها وهذا يعنى أن النظام الكونى بكل ما يحويه من علامات ورموز هو نظام ذو دلالة.

ومن هنا يمكن القول أن السيميولوجيا علم يدرس بنية الإشارات وعلائقها فى الكون وكذلك توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية[٥]، وأصل هذه الكلمة يونانى وهى مركبة من semeion بمعنى كعلامة وlogos بمعنى خطاب[٦]. وانطلاقا من دور العلامة فى الوجود فى الحياة الاجتماعية نقول: لا شىء سوى العلامة؛ فالانسان يشكل مع محيطه نسيجا متداخلا من العلاقات، يتفاعل مع بنى جنسه، مع الطبيعة، فى المواقف المختلفة، معتمدا على أنظمة من العلامات، يخيفه البرق فيتصرف، تبكيه رؤية الأطلال[٧]، يتكلم، يغنى، يتعرف على الأشياء بواسطة العلامات.

ولا غرابة فى ذلك، فالإنسان مدنى بالطبع، يختلف عن غيره من الكائنات بحاجته للتواصل والمعرفة، ولا شك أن وعيه بذاته، وتميزه بالتعرف على الطبيعة- بعد انفصالها عنه- بالعمل الجماعى، لكسبه القدرة على لكتشاف العالم، وتكوين التصورات والمفاهيم حوله، وهذا راجع إلى الاستطاعة التى يتصف بها، فهى أساس

الإنجاز والتنفيذ والعقل بدونها لا فعالية له، إذ هو كالمعدوم لا وجود لـه، لأنـه فـي حاجة دائمة إلى توفر الاستطاعة على الفعل، لكي يتوصل إلى المعرفة(٨).

والظاهر أن هذه النظرة إلى العقل، تقترب إلى حد بعيد، في مجال اللغـة مـن فكرة الكفاية اللغوية والاستعمال الفعلي للكلام عند "سوسير" وكذلك المقدرة والانجـاز عند "تشومسكي"(٩)، فاللغة كألفاظ وتراكيب وقواعد فـي الـذهن، تعـد معدومـة، ولا تصبح موجودة إلى بعد استعمالها على شكل أصوات مسموعة أو مكتوبـة، غيـر أن هذه الكفاية اللغوية ضرورية لأن الذى لا يمتلكها، لا يمتلـك القـدرة علـى الكـلام والإنجاز.

وهكذا فوجود الاستطاعة، يعنـي وجـود العقـل والمعرفـة، ولـيس يوجـب وجودهما وجود الاستطاعة(١٠). ويتحقق ذلك بأدوات خاصة يعبر بهـا الإنسـان عـن إدراكه لذاته وللكون. ومن هنا، تولدت الحاجة إلى العلامة، كأداة تواصـل ومعرفـة واصطلحت البشرية على تسميات، ومصطلحات تفسيرية للوجود والحياة، وبواسـطة هذا الاصطلاح، اكتسبت العلامة بعدها الثقافي كحقائق خاضعة للمجتمع، في حركتـه وتطوره(١١).

وقد تنوعت العلامات تبعا لتنوع المعارف والحاجات الإنسانية، فهناك الألفـاظ، الإشارات، الرموز، الآثار، الإيماءات، المشهديات، ولختص كل نظام مـن الأنظمـة السيميائية بعلامة خاصة. ومع ذلك، يمكن أن تقسم هذه العلامـات إلـى: العلامـات اللسانية (الألفاظ) أو اللغة البشرية، والعلامات غير اللسانية وتشـمل جميـع أنظمـة السيمياء غير اللفظية. وهناك من يقسم هذه الأخيرة إلى العلامات : الشمية، اللمسـية، الإيمائية، أو الإشارية، السمعية، الأيقونية(١٢).

ومن هنا يتضح أن مصطلح "علامة" أوسع وأشمل من الكلمة التى تعد جزءا من الحقل الأعم، لأنها نوع لفظى من العلامات، تنطلق دلالتها وتتحدد من قيمتها فى ثقافة ما، حيث لا معنى للصوت فى حد ذاته، إذ هو يكتسب المعنى عبر القيمة الدلالية المرتبطة بالكلمة فى لغة معينة أو ثقافة معينة(١٣).

وعلى الرغم من الجدل القائم حول علاقة اللغة الطبيعية بالأنظمة السيميولوجية، إذ نجد من يرفع من قيمة اللغة، ويضعها فى قمة الأنظمة السيميائية، على أساس أنها النظام السيمولوجى المفسر لجميع الأنظمة الأخرى، أى إننا لا نستطيع أن نتحدث عن أى من هذه الأنظمة إلا بواسطة اللغة، كما نجد من يعدها من بين هذه الأنظمة السيميائية من غير تفضيل، وهؤلاء يعتبرون السميولوجيا أعم من علم اللغة(١٤). إلا أنه ينبغى أن نقر بأن نظام اللغة هو المركز المحور فى الحقل السيميولوجى.

والملاحظ يكتشف أن جذور السيمياء والتأملات فى اللغة قديمة قدم الإنسان، والفكر والوجود، إذ وصلت إلينا بعض الملاحظات حول العلامة من الحضارات القديمة، كالحضارة الصينية، واليونانية، والعربية، غير أن هذه التأملات بقيت فى إطار التجربة الذاتية، لا ترقى إلى مستوى العلمية والموضوعية(١٥). والظاهر أن التأمل فى العلامة نشأ لا عن قصد المعرفة، كما قد نتصور، بل عن قصد التشكيك فى المعرفة، أى من منطلق رفض هيمنة معرفة معينة، فالمدرسة الشكية الإغريقية تنطلق من أن الحواس قد تخوننا، وأن المختصين يناقض بعضهم بعضا، لذلك يجب عدم التصديق بكل ما يزعم والتشكيك فى كل ما يقدم ويقال(١٦).

ثم أخذ هذا المنهج السيميائي يتبلور مع تقدم العلم والعلوم الإنسانية، بصفة خاصة، ومر بمراحل عديدة، وأول باحث قدم مصطلح "السيمولوجيا" هو الفيلسوف جيم لوك (J.Lacke 1704/1632) غير أن الدراسة السيمولوجية في عصره لم تتجاوز إطار النظرية العامة للغة وفلسفتها النظرية(١٧).

وأول من دعا إلى علم السميولوجيا، فردينان دي سوسير (1914/1857) وقد نظر إلى هذا العلم المتخيل غير الموجود بمنظار لساني (لغوي) وليس بمنظار فلسفي، وقد كانت أفكاره وتفسيراته حول هذا العلم محدودة، لأنه تطرق إليه فقط أثناء كلامه عن الإشارات المتنوعة التي تدخل كلها فيما سماه بالسيميولوجيا(١٨). هذا العلم عنده يدرس حياة الإشارات في مجتمع من المجتمعات يمكن أن يكون جزءا من علم النفس الإجتماعي، ومعنى هذا أنه يدرس بنية الإشارات ويضع الأنظمة والقوانين التي يحكمها وهو غير قائم- حسب قول دي سوسير- لهذا فلا أحد يستطيع أن يعرف ماهيته، غير أنه في سعي دائب لتحقيق وجوده(١٩).

والحقيقة أن السيمياء لم تصبح علما قائما بذاته إلا بعد العمل الذي قام به الفيلسوف الأمريكي شارلز سوندز بيرس (1914/1839) والجهود التي بذلها في هذا الميدان حيث قام بوضع نظرية خاصة بالإشارة سماها La semiotique ، ويعتقد أنها شاملة لجميع العلوم الإنسانية والطبيعية إذ يقول: ليس باستطاعتي أن أدرس كل شيء في هذا الكون كالرياضيات، الأخلاق، والميتافيزيقا، الجاذبية الأرضية، الديناميكية الحرارية، والبصريات، والكيمياء، وعلم التشريح المقارن، وعلم الفلك، وعلم النفس، وعلم الأصوات، وعلم الاقتصاد، وتاريخ العلم، والكلام، والسكوت، والرجال، والنساء، والنبيذ، وعلم القياس والموازين، إلا على أساس أنه

نظام سيميولوجي[٢٠]. ومن هذا المنطلق أصبحت الإشارة الدالة مهما كان نوعها ضمن علم السيمياء. وإذا كان سوسير يركز على الوظيفة الاجتماعية للإشارة، فإن بيرس يركز على الوظيفة المنطقية، غير أن المظهرين يتصلان ببعضهما اتصالا وثيقا، والكلمتان " سيميولوجيا وسيميائيات" تعطيان اليوم نظاما واحدا والفرق في استخدام المصطلح فقط، حيث نجد الأوروبيين يستخدمون المصطلح الأول، بينما يستخدم الثاني كل الناطقين باللغة الإنجليزية.

هكذا تبلورت السيميولوجيا في القرن العشرين، وسارت علما تشكلت مفرداته وتحددت مناهجه وسارت حقلا معرفيا[٢١]. وتبعا لنشأتها اتجهت اتجاهين كبيرين: الأول يحاول تحديد ماهية العلامة ويدرس مقوماتها، وقد مهد لهذا المعنى Ch.S.Pierce والثان يركز على توظيف العلامة في عمليات الاتصال ونقل المعلومات وقد استلهم هذا الاتجاه من مقولات F.de Saussure

والمتأمل يكتشف أن الرؤية السيميولوجية للوجود رؤية شاملة توحد بين الحقول المعرفية، وتحارب تفتت العلوم، وترفض التصنيف، فهي محاولة جادة تطمح إلى ربط المعارف الإنسانية[٢٢]. وفي الوقت نفسه تطمح إلى تفاعل الحقول المعرفية المختلفة عن طريق الكشف عن مستوى مشترك بينها، يمكن من إدراك مقومات هذه الحقول وهذا العامل السيميائي، ومعنى هذا أنها تلغي الإنشطار المعرفي، وتبقي على الفروق المعرفية[٢٣].

وهذا المنطلق يناظر منطلق الفلسفة التي تبحث دائما عن جوهر الأشياء، وهي منذ بدايتها تحاول أن تقوم بدور الموحد بين العلوم وبدور أنسنة الواقع، بكل مظاهره الطبيعية والاجتماعية، غير أن الفارق بينها يكمن في أن الفلسفة تنطلق من

التساؤل عن مفهوم ما، تنقد، تحلل، تعلل، لتربط بينها، ثم تصل بعد ذلك إلى جوهر الجوانب المرتبطة بالإنسان و عالمه، فهي تصبو في الأخير إلى الأصل الواحد إلى مفتاح يحل اللغز الإنساني ،بينما لا تنطلق السيمياء، من مفهوم ما لتفسره وتحلله، وتشرحه، وإنما تنطلق من العلامات كأشياء و الربط بينها . وبمعنى آخر إذا كانت الفلسفة تنطلق من المضمون ،فان السيمياء تنطلق من الشكل، في فهم الإنسان، ولا تطمح الى اكثر من وصف الوجود، على العكس من الفلسفة التي تطمح إلى العثور على مفتاح الوجود[٢٤].

ومعنى هذا أن الرغبة الكامنة في السيمياء، والتي مازالت تسييرها هي الرغبة في الإحاطة بالكلي، والتواصل الشامل والإنساني وراء كل ظاهرة مفردة .ويبدو أن هذه الرغبة بعيدة المنال إلا أنه لابد منها –في زمن التجزؤ والاستلاب –لأنها الأجدر والأولى[٢٥].

هذه النظرة تلخص طموح السيمياء فيما يخص العلوم بصفة عامة .أما طموحها في مجال العلوم الإنسانية،فان استخدامنا لهذا المنهج يساعد على تحويل هذه العلوم الإنسانية الى علوم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. فالدراسة والتحليل بالاعتماد على المنهج العلمي ،يبعدنا عن المناهج التأملية والانطباعية، ويتم ذلك بالسيطرة على المادة التجريبية والوصول إلي مستوى معين من التجريد مما يسمح بتصنيف هذه المادة ووصفها والكشف عن أبنيتها العميقة ،ثم استخلاص القوانين آلتي تحكمها. والأعمال الأدبية هي المادة التجريبية التى نتعامل معها ونصفها ،حيث تنشأ الدقة من التعرف على خصوصية هذه المادة ومن التواصل إلي مصطلح محدد يحصر العناصر المختلفة التى تتكون منها الظاهرة (التجريبية)،كما تنشأ العملية من خلال

التصنيف طبقا لقواعد رياضية، ومن طرح التصور للأنساق المجـردة التـي تحكـم العلاقات بين العناصر .

وتبعا للنظرة الشاملة آلتي تميز بها مـنهج السـيمياء ،كقاعـدة للتعامـل مـع الظواهر ،فانه لا يفصل الظاهرة التجريبية الواحدة عن محيط العـالم الـذي تظهـر فيه، فالنص الأدبي مثلا له خصوصياته و مقوماته غير أنه لا يدرس منعزلا بـل تـتم عملية وضعه في سياقه من خلال كشف ترابطه مع الأنظمة السيميولوجية المختلفـة، أي السياق المعرفي العام للثقافة البشرية.

ولقد ساهم الفن والأدب مساهمة كبيرة في تطـور السـيمياء المعاصـرة، وذلـك لأن الفنون التي تدرس في هذا الإطار كإشارات في مجـال الفـن تكتسـب أهميتهـا ،لا لكونها أداة إيصالية للمعنى فحسب،بل لكونها أيضـا أداة جماليـة فالإشـارة الفنيـة (الموسيقى، الرسم، الشعر، القصة، والرواية،...) تشارك الإشارة اللغوية فـي فـرز المعنى وتوصيله[٢٦].

فالسيمياء بهذا التصور تمثل الدرجة الأعمق في الوعى المعرفـي وفـى قـدرة الإنسان على اكتساب المعلوم من المجهول، وفى التصـنيف الـواعي الـذي يـنظم المعرفة، بل تتجاوز ذلك إلى فهم الواقع وخلقه باستمرار فهـي تواصـل و إبـداع . ومعنى هذا أنها أساس المعرفة وقناة التواصل إذ بالعلامات يحـدث التواصـل وبهـا يحدث الخلق و الابتكار .

الهوامش

١. لسان العرب ٣١٢/١٢
٢. الجاحظ مثلا في كتابه الحيوان، قسم العلامة إلى اللفظ، الإشارة، ثم العقد، وينظر للاطلاع أكثر على العلامات في التراث العربي، مدخل السيميوطيقا ص ٧٣ وما بعدها.
٣. مدخل إلى السيميوطيقا ص ٧٣
٤. انظر سوسير في كتابه الدروس، وانظر برنار توسان ترجمة محمد نظيف ما هي السيميولوجيا ص ٩، وانظر ترنس هوكز البنيوية وعلم الإشارة ترجمة مجيد الماشطة ص ١١٣
٥. بييرجيرو: علم الإشارة، ص ٩
٦. بيرنار توسان، المرجع السابق ص ٩ وانظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ص ١٥
٧. مدخل إلى السيميوطيقا ص ١٢
٨. المرجع نفسه ص ٧٦/٧٥
٩. راجع سوسير في كتابه الدروس والقواعد التحويلية والتوليدية لتشومسكي.
١٠. مدخل إلى السيميوطيقا ص ٧٦ وانظر الجاحظ الحيوان (٤٢/١، ١١/٢)
١١. العلامة وإن ارتبطت بصورة عامة بالثقافة فهي لا تقتصر عليها، فهناك علامات ترتبط بالطبيعة والغريزة وتستقل استقلالا تاما عن الثقافة: هجرة الطيور، حركات النمل الإيقاعية، وهناك علامات لا هي ثقافية صرف ولا هي طبيعية صرف، مثل احمرار الوجه قد يدل على الخجل، مع أن ظاهرة تصاعد

الدم هى ظاهرة فسيولوجية طبيعبة، غير أن ربط ذلك بالحياء، ليس التفسير الثقافى لظاهرة طبيعية، انظر مدخل إلى السيميوطيقا ص ١٠ وراجع سيميوطيقا الثقافة، دروس فى السيميائيات ص ٨٥ وما بعدها ثم راجع روبرت شولز: السيميائيات والتأويل ص ١٤.

١٢. برنار توسان، المرجع السابق، ص ١١-٣١، وانظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ص ١٥.

١٣. مدخل إلى السيميوطيقا ص ٩.

١٤. المرجع نفسه ص ٣٦.

١٥. ببير جيرو، المرجع السابق ص١٥.

١٦. مدخل إلى السيميوطيقا ص ١٤.

١٧. ببير جيرو المرجع السابق ص ١٨.

١٨. المرجع نفسه ص ١٣.

١٩. المرجع نفسه ص ١٣، ١٤، وراجع سوسير "الدروس"

٢٠. ببير جيرو، المرجع السابق ص ٢٤ وانظر محنون مبارك، دروس فى السيميائيات ص ٤٢.

٢١. المرجع نفسه ص ٢٥

٢٢. مدخل إلى السيميوطيقا ص ١٩

٢٣. المرجع نفسه ص ١٢، ١٣

٢٤. المرجع نفسه ص ١٣، ١٤وينظر روبرت شولز، السيمياء والتأويل للتوسع فى مجال الإنسانيات و السيمياء ص ٢٠ وما بعدها.

٢٥. المرجع نفسه ص ١٦

٢٦. بيير جيرو المرجع السابق ص ١٨

المراجع

١. برنارتوسان: ماهي السيميولوجيا، ترجمة مجيد نظيف. دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط٢.

٢. بيير جيرو: علم الإشارة، ترجمة منذر عياشي. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٨

٣. ترنس هوكز: البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة محمد الماشطة. سلسلة المائة كتاب، بغداد، ط١، ١٩٨٦

٤. حنون مبارك: دروس في السيميائيات. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٧

٥. روبارت شولز: السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤

٦. نصر حامد أبوزيد: مقالات مترجمة ودراسات. دار إلياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٩

٧. مارسيلوداسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وجماعة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧